

مؤتمر الآباء الكهنة السنوي لإيبارشيّة كاليفورنيا وفلوريدا
دير السيّدة العذراء والقديسة دميانه بأطلنطا بولاية جورجيا
الولايات المتحدة الأمريكيّة
٢٦-٣١ يناير سنة ٢٠١٥ م

ليتورجيّة^(١) القدّاس^(٢) الإلهي هي تمجيدٌ للثالوث القدّوس

نقرأ بضع آيات من سفر الخروج، ومن سفر الرؤيا، ومن سفر المزامير.

- (خروج ١٦: ١٩-٢٥)، و(خروج ٢٠: ١٨-٢١).
- «كل خليفة ممّا في السّماء، وعلى الأرض، وتحت الأرض، وما على البحر، كلّ ما فيها سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف: البركة والكرامة والمجد والسّلطان إلى أبد الأبدين» (رؤيا ٥: ١٣). «وحينما تعطي الحيوانات مجداً وكرامة وشكراً للجالس على العرش، الحسي إلى أبد الأبدين، يجزّ الأربعة والعشرون شيخاً قدام الجالس على العرش، ويسجدون للحَيِّ إلى أبد الأبدين، ويطرحون أكابيلهم أمام العرش قائلين: أنت مستحقُّ أيها الرّب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة، لأنك أنت خلقت كلّ الأشياء، وهي بإرادتك كائنة، وخلقّت» (رؤيا ٤: ٩-١١). «من لا يخافك ياربُّ ويمجّد اسمك، لأنك وحدك قدّوسٌ. لأنّ جميع الأمم سيأتون ويسجدون أمامك، لأنّ أحكامك قد أظّهرت» (رؤيا ٤: ١٥).
- «كل الأمم الذين صنعهم، يأتون ويسجدون أمامك ياربُّ ويمجّدون اسمك، لأنك عظيمٌ أنت وصانع عجائب. أنت الله وحدك» (مزمو ٩٦: ٩، ١٠).

مقدّمة

لعلّه من جرّاء ممارستنا المتكرّرة للقدّاس الإلهي، بنصوص وممارسات ليتورجيّة محفوظة، وعلى مدى سنوات طويلة، يغيبُ عنّا أحياناً ونحن نُصلي القدّاس، الغاية العظمى منه، والمضمون الإيماني لنصوصه الليتورجيّة، وفعل ذبيحة الإفخارستيا فينا. لذلك أودُّ أن أتحدّث إلى أبوتكم عن موضوع بعنوان: "ليتورجيّة القدّاس الإلهي، هي تمجيدٌ للثالوث القدّوس".

فالعبادة الليتورجيّة في الكنيسة، هي حضورُ الله في بيته الذي هو الكنيسة، وشركتنا نحن في حضوره. ومن ثمّ، فلا يتوقّف لسأنا عن اللّهج بتسيّحه وتمجّده وشكّره، منذ أن تبدأ صلواتنا، وحتى تنتهي. ومن أجل هذا، فقد شحنت الكنيسة المقدّسة كلّ إيمانها في داخل نصوص صلواتها، حتى يتغلغل هذا الإيمان في نفوس بنيها، إيماناً مرثلاً معاشاً. إننا في القدّاس الإلهي نُرتّل اللاهوت، أي نُرتّل إيماننا، وفي ذات الوقت نشترك في هذا الإيمان، الإيمان بالآب والابن والروح القدس.

١- كلمة "ليتورجيّة" تعني خدمة شعبيّة، وتشمل جميع أنواع العبادات الطقّسيّة في الكنيسة. وإنّ تسمية القدّاس الإلهي بلفظ "ليتورجيّة" هو تقليد بيزنطي عُرف منذ أيام القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧ م). وأمّا عند الأقباط، فإنّ الاسم اليوناني التقليدي للقدّاس هو συνάξις (سيناكسيس) ومنه الاسم القبطي **ⲥⲏⲛⲁⲕⲥ** (سيناكس) أي: "اجتماع" وذلك منذ أيام البابا أثناسيوس الرّسولي (٣٢٨-٣٧٣ م). ولأنّ كلمة "سيناكس" في المصطلح الكنسي تعني أي اجتماع لعبادة أو صلاة جمهوريّة، فقد ميّز الأقباط بين "السيناكس الكبير" **ⲫⲏⲟⲩⲧⲏ ⲛⲥⲏⲛⲁⲕⲥ** ويعني تحديداً (الأنافورا) أي قدّاس القربان، والذي يبدأ بقول الكاهن: "الرّب مع جميعكم"، ويسبقه بالضرورة تقديم الحمل، وبين "السيناكس الصّغير" **ⲫⲏⲟⲩⲧⲏ ⲛⲥⲏⲛⲁⲕⲥ** ويعني أي صلوات طقّسيّة أخرى في الكنيسة، مثل، صلوات رفع الخُخور، أو قدّاس الموعوظين (ولكن قبل أن ينتقل إلى ما بعد تقديم الحمل، في غضون القرن السّادس الميلادي، إذ صار اليوم من صلب ليتورجيّة قدّاس القربان)، أو التّسبيحة اليوميّة، أو صلوات السّواعي.

٢- "قدّاس" من الكلمة السّريانيّة "قدّاشا" **kuddasha**. وهي التّسمية التي يُعرف بها القدّاس الإلهي عند الكنيسة الآشوريّة (التّسبوريّة) حتى اليوم "قدّاشاه". وهذه الكلمة أصولها الأولى عبريّة، نقرأ عنها في سفر التّكوين، حين بارك الله اليوم السّابع «وقدّسه». ولقد ظهرت كلمة "قدّاس" في لغة الكنيسة الطقّسيّة منذ القرن الرابع، عند السّريان أولاً، ولكنّ هذا الاسم "قدّاس" انتشر في الكنيسة القبطيّة، حتى طغى على الاسم القبطي لصلاة الإفخارستيا فيها. وكلمة "قدّاس" عند الأقباط حالياً، يقابلها كلمة "أنافورا" عند السّريان الأنطاكيّين والموارنة. وكلمة "أنافورا" **ἡ ἀναφορά** تعني حرفياً في المصطلح الليتورجي: "تقديم القربان أو رفعه - offering". وأطلقت الكلمة على الجزء الرّئيسي من صلاة الإفخارستيا، وهو الجزء الذي يحوي التّقدس والتّذكار والتّناول. ولأنّ هذه الكلمة صارت تغطي معظم صلوات القدّاس الإلهي، لذلك أطلقت عموماً على تقديم ذبيحة الإفخارستيا بكاملها.

ويرى البابا أناسيوس أن المعرفة اللاهوتية الحقة، تتمزج بالضرورة بروح التسييح والتمجيد، وتقديم العبادة اللائقة بالثالوث. ويقول القديس كيريانوس الشهيد (+ ٢٥٨م) أسقف قرطاجنة:

[اجتهدوا أن تجتمعوا معاً كثيراً وباستمرار، لتقديم الإفخارستيا، وتمجيد الله] (الرسالة رقم ١٠٤).

ويُطلعنا العلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) على تقليد الكنيسة القديم جداً، والذي نمارسه حتى اليوم، فيقول:

[كما بدأنا الصلاة بتمجيد الله، فمن المناسب أن نختتمها بتمجيد وتسييح: "تمجد الأب بالمسيح يسوع في الروح القدس"]^(٣).

وقبل أن نخوض في موضوعنا يلزم أن نعرف، أن نصوص الصلوات الليتورجية في الكنيسة المسيحية، قد ورثت نوعين منها، النوع الأول ذات أصل يهودي، موروث من المجمع اليهودي. وفي هذا النوع، تحوي النصوص الليتورجية صيغاً من الشكر والتسييح. والنوع الثاني ذات أصل هلليني، وتأتي فيه صيغ الصلوات في شكل طلبه وتوسل^(٤). ولقد نشأت الليتورجية المسيحية، من مثل هذا التوافق أو التناسق، بين هذين النوعين من الصيغ الليتورجية.

وهكذا نجد، أنه في ليتورجية الكنائس الشرقية عموماً، لا تخلو نصوص الصلوات الليتورجية ذات المرد response - أي النصوص التي تجري بالتبادل بين الكاهن والشعب - من تكرار لا يهدأ، لتمجيد الثالوث القدوس، الأب والابن والروح القدس. وهذا على عكس طقس كنيسة روما، الذي لا يحوي تمجيداً للثالوث في معظم نصوصه الليتورجية ذات المرد.

وبالإضافة لذلك، فإن الشرق المسيحي يعتمد في نصوص صلواته الليتورجية على الشكل الشعري المنظوم metrical form معتبراً إياه نصاً ليتورجياً ملزماً لا غنى عنه، يتبعه بعض آيات من الزمير. أما الغرب المسيحي، فقد اعتمد على النص الكتابي، أي النص كما ورد في الأسفار المقدسة في كلا العهدين القديم والحديد، جاعلاً منه مادة لترتيل الأنتيفونات والمردات. ولذلك فإنه من قبيل الخروج عن التقليد الليتورجي الشرقي، أن نورد لجميع نصوص صلوات القداس الإلهي مثلاً، ما يدعمها من آيات من الكتاب المقدس. فليس من الضرورة أن يكون للنص الليتورجي الشرقي مقابل كتابي. بل إن بعض النصوص الكتابية، مأخوذة أصلاً من نصوص ليتورجية، كما في رسائل القديس بولس الرسول.

تمجيد الثالوث يُغطي كلَّ القداس الإلهي

في بداية كل صلواتنا عموماً

نبدأ كل صلواتنا الليتورجية بقولنا: "باسم الأب والابن والروح القدس الإله الواحد". ثم نردّد أقدم صلاة ليتورجية بعد الصلاة الربية، لا تخلو منها العبادة الليتورجية في آية كنيسة تقليدية في الشرق أو الغرب، وهي: "المجد للأب والابن والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور، آمين"^(٥). وذلك بالتناوب مع صلاة ليتورجية أخرى، يشترك كل الشعب في ترتيلها، وهي: "نسجد لك أيها المسيح إلهنا، مع أبيك الصالح، والروح القدس، لأنك أتيت وخلصتنا".

في بداية القداس الإلهي

- يبدأ الشعب بترتيل "هلليويا"، "سبحوا الله". وهو المعروف بأللي القربان.
- وبنهاية الللي القربان، السابق ذكره، يقول الكاهن:
- "مجداً وإكراماً، إكراماً ومجداً للثالوث القدوس الأب والابن والروح القدس ...".

٣- عن الصلاة (٦:٣٣).

٤- وتحت تأثير الصيغ الهلينية أو الفلسفية اليونانية، ظهرت صيغ ليتورجية تخاطب الله في شكل صفات عكسية، أو ما يُعرف باسم "اللاهوت السليبي negative theology". ويُعدُّ قداس القديس سراييون، والقديس غريغوريوس القبطي، مثالان لذلك. وأيضاً التسيحة اليومية في الكنيسة القبطية.

٥- إنه من المبدع جداً، أن نعرف، أن هذه المقدمة التي يقولها الكاهن حالياً بمفرده في مستهل الصلاة، كان الشعب كله يشترك في ترديدها عند بدء الصلاة، وهو ما تشهد مخطوطاتنا الكثيرة.

– ”باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين.

– مباركُ اللهُ الآبُ^(٦) ضابطُ الكُلِّ، آمين.

– مباركُ ابْنه الوحيدِ يسوعُ المسيحُ ربُّنا، آمين.

– مباركُ الرُّوحِ القُدُسِ المعزِّي، آمين“.

• فيقول الشَّمْسُ مجيئاً:

– ”واحدٌ هو الآب القُدُّوس. واحدٌ هو الابن القُدُّوس. واحدٌ هو الرُّوح القُدُّوس. آمين. باركوا الرَّبَّ يا جميع الأُمم، ولتباركه كافةُ الشُّعُوبِ، لأنَّ رحمته قد ثبتت علينا، وحقُّ الرَّبِّ يدوم إلى الأبد“.

• فيجيبُ الشُّعْبُ قائلاً:

– ”المجد للآب والابن والروح القدس، الآن وكلَّ أوانٍ وإلى دهر الدهور آمين“.

وهكذا يبدأ القُدَّاسُ الإلهي، بهذه السِّمفونيَّة الرَّائعة بالتَّبادل بين الكاهن والشَّمْسُ والشُّعْبِ، بتقديم المجد والإكرام والبركة للثالوث القُدُّوس الآب والابن والروح القدس. المجد للآب الذي أحبَّ العالمَ حتى بذل ابنه الوحيد^(٧). والمجد لابن الذي أحبَّنا حباً لا نهائياً، لأنه «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا، أن يضع أحد نفسه من أجل أحبائه» (يوحنا ١٥: ١٣). والمجد للروح القدس، الذي أظهر لنا حبَّ الآب والابن، ونقل حبَّهما إلى قلوبنا، لأنَّ «محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا» (رومية ٥: ٥). وقد قال الرَّبُّ يسوع عن الروح القدس: «ذاك يمجِّدني، لأنه يأخذ ممَّا لي ويُخبركم. كلُّ ما للآب هو لي، لهذا قلتُ إنه يأخذ ممَّا لي ويخبركم» (يوحنا ١٤: ١٥-١٦).

فتقدِّمُ الإفخارستيا، هو في الأساس، لتمجيد الرَّبِّ في بيته، وتكريم اسمه القُدُّوس المبارك. وإنَّ تمجيدَ الثالوث القُدُّوس، وإعلان وحدانيَّة أقانيمه، هو مسوغ الدُّخول إلى خدمته. خدمة كنيسته الواحدة المقدَّسة الجامعة الرِّسوليَّة، لإيمان واحد بإله واحد.

يقول البابا أناسيوس الرِّسولي:

[هناك لاهوتٌ واحدٌ في ثلوث، وهناك مجدٌ واحدٌ للثالوث القُدُّوس]^(٨).

على مدى القُدَّاسِ الإلهي

على مدى خدمة القُدَّاسِ الإلهي، تتكرَّر عبارات المجد والكرامة والعظمة والسُّجود للثالوث القُدُّوس.

• فعند كلِّ مخاطبة لله الآب، نختتم بالذكِّصا التي نقول فيها:

– ”بالنعمة والرَّافة ومحبة البشر، اللواتي لابنك الوحيد ربُّنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، هذا الذي من قبله المجد والكرامة والعزَّة *νεη πι'αυαρι* والسُّجود، تليق بك، معه، ومع الرُّوح القُدُّوس المحيي المساوي لك“^(٩).

– أو: ”بالمسيح يسوع ربُّنا، هذا الذي من قبله المجد والكرامة والعزَّة والسُّجود، تليق بك معه ومع الرُّوح القُدُّوس ... الخ“.

• وعند مخاطبة الله الابن^(١٠)، نختتم بالذكِّصا التي نقول فيها:

– ”وأنت الذي تُرسل لك إلى فوق، المجد والإكرام والسُّجود، مع أبيك الصَّالح والروح القدس المحيي، المساوي لك ...“.

وبحسب التَّقْلِيدِ اللَّيْتُورِجِيِّ، فإنَّ الذِّكْصَا الختاميَّة أو التَّمجيد الختامي في صلواتنا اللَّيْتُورِجِيَّة، يقال دائماً سرّاً، وذلك بالتَّسليم الشَّفاهي من كاهن إلى آخر عبر هذه السَّنِين الطَّويلة، دون أن يشير أيُّ خولاجي مخطوط أو مطبوع إلى هذا التَّقْلِيدِ القديم^(١١). إلاَّ أن تكميلها بكلِّ وقار وانتباه، هو أمر في غاية الأهميَّة، لأنَّ تمجيد اسم الرَّبِّ في بيته، بملاؤه بحضوره. وهو ما يستشعره المصلِّون

٦- مباركة الإنسان للآب والابن والروح القدس، تلخَّص في قول بولس الرِّسول: «مباركُ اللهُ أبو ربُّنا يسوع المسيح، الذي باركننا بكلِّ بركةٍ روحيَّة في السماويَّات في المسيح يسوع» (أفسس ٣: ١). فمباركة الإنسان لله، تعني تسيِّحه وحمده وشكره والاعترافَ بفضله.

٧- انظر: يوحنا ٣: ١٦.

٨- ضدَّ الأريوسيين ١٨: ١ PG 26, 48.40-41

٩- كما في ختام صلاة الشُّكر.

١٠- مثل صلاة التَّحليل، وأوشية سرِّ البولس ... الخ.

١١- كما في تحليل الخدَّام، والذي هو في أصله صلاة سرِّيَّة غير جهاريَّة، وأيضاً أوشية الإنجيل، وجميع صلوات الصُّلح، وغيرها.

قلبياً، فيخرجون من الكنيسة، ويشهدون قائلين: حقاً قد رأينا الرب.

* * *

- في صلاة الاستعداد، يقول الكاهن: "أمام مجدك العظيم، نقدّم لك صعيدة^(١٢) البركة. مجدداً وعظماً بهاء في قدسك (هيكلك)". وفي الذكصا الختامية لها: "... وأنت الذي تُرسل لك إلى فوق، المجد والإكرام والسُّجود، أيها الآب والابن والروح القدس، الآن ...".
- في تحليل الابن: "أيها السيد الرب يسوع المسيح الابن الوحيد وكلمة الله الآب ... آبائي وإخوتي وضعفي، هؤلاء المنحنيين برؤوسهم أمام مجدك المقدس، ارزقنا رحمتك ...". وفي الذكصا الختامية له: "أنت هو إلهنا، والمجد والكرامة والعزة والسُّجود، تليق بك مع أبيك الصالح والروح القدس، المحيي المساوي لك ...".
- في الذكصا الختامية لتحليل الخدام: "لأنه مباركٌ ومملوءٌ مجدداً اسمك القدوس، أيها الآب والابن والروح القدس، الآن ...".

* * *

- في ختام أوشية البخور يقول الكاهن: "لأنه مباركٌ ومملوءٌ مجدداً، اسمك القدوس، أيها الآب والابن والروح القدس. الآن ...". ونقرأ في الدسقولية العربية، فصل ٣٨: "يحمل الأستقف البخور ويدور به حول المذبح ثلاث دفعات، تمجيداً للثالوث المقدس، ثم يدفع جمره البخور للقس، فيدور بها على الشعب كله".
- في أوشية بخور البولس: "يارب المعرفة ورازق الحكمة ... وكما تشبّه بك (بولس الرسول) أنت يا رئيس الحياة، هكذا نحن أيضاً اجعلنا مستحقين أن نكون متشبهين به^(١٣)، في العمل والإيمان، ممجدين اسمك القدوس ...".
- في أوشية بخور الإبركسيس: يرفع الكاهن البخور إلى الجمره يداً واحدة ويقول: "مجدداً وإكراماً وإكراماً ومجدداً ...".
- في أوشية القرايين: "أذكر ياربُ صعائدٍ وقرايينٍ وشكرَ الذين يقربون، كرامةً ومجدداً لاسمك القدوس".

* * *

- في كل الأعياد السيدية الكبرى، تُرتل الكنيسة قبل لحن أجيوس، أربعاً على وزن أسبسموس ميغالو، يردُ فيها الربع الأول محتصاً بمناسبة العيد، وأمّا الأرباع التالية له، فتورد نصّ "المجدلة" وهي من أقدم تسابيح الكنيسة، والتي تعرفها كافة كنائس المسكونة، فنقول: "الشارويم والسيرافيم، الملائكة ورؤساء الملائكة، والعساكر والسلاطين والكراسي والربوبيات والقوات، صارحين قائلين: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة"^(١٤).

* * *

- في صلوات الحجاب:
 - في القداس الباسيلي للآب: "هذا السر الذي دبرته لنا خلاصاً ... ومحواً لخطايانا وغفراناً لتكاسلنا، ومجدداً وإكراماً لاسمك القدوس".
 - في القداس الغريغوري للآب: "أيها الرب الإله ضابط الكل، العارف أفكار البشر ... ارسل عليّ نعمة روحك القدوس، واجعلني مستحقاً أن أقف على مذبحك المقدس، وأقرب لك الذبيحة الناطقة غير الدموية بسريرة نقيّة ... مجدداً لك ولابنك الوحيد والروح القدس المحيي المساوي لك ...".
 - صلاة ثانية للآب في القداس الغريغوري: "فلتكن ذبيحتنا مقبولة أمامك لغفران خطايانا، ومجدداً لاسمك القدوس".

١٢- الصعيدة، أو القربان، أو الذبيحة، كلها مترادفات لكلمة واحدة.

١٣- انظر: ١ كورنثوس ١١: ١١

١٤- وهي المعروفة عند الأقباط بتسبيحة الملائكة، نقول فيها: "نسيحك، نباركك، نخدمك، نسجد لك، ننطق بمجديك، نشكرك على عظم مجدك". وقد أثبتت الدراسات الآبائية، أنها من وضع البابا أناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣ م).
وأشير هنا إلى أنه في الآونة الأخيرة قد اقتصر ترتيب الأرباع المختصة بهذه المجدلة، على عيد الميلاد فقط!! وهذا خروج على التقليد الليتورجي المحفوظ في مخطوطاتنا، ولاسيما مخطوطات ترتيب البيعة، حتى إلى أوائل القرن العشرين.

- صلاة حجاب للآب في القدّاس الكيرلسي، لأبينا القدّيس يوحنا المثلث الطوبى^(١٥): ”يا خالق البرية كلّها ... أعطني ياربُ روحك القدوس، النار غير المهيولّة، التي لا يُفكر فيها ... وكما يليق بالكهنة، يجعلني فوق كلِّ فكر ميّت، وليجعل فيّ الكلمات المطهّرة، لكي أكملّ هذا القربان الموضوع، الذي هو سرّ جميع الأسرار، بصُحبة وشركة مسيحك، هذا الذي يليق بك معه، المجد مع الرّوح القدّس المحيي المساوي لك ...“.

* * *

• في قراءة فصل الإنجيل المقدّس:

- الذكصا الختامية للابن في أوشية الإنجيل: ”وأنت الذي تُرسل لك إلى فوق، المجد والإكرام والعزّة والسُّجود، مع أبيك الصّالح والرّوح القدّس، الآن ...“.

- الذكصا الختامية لأوشية الإنجيل بحسب نصّ الإسكندرّيّين، والتي بدايتها: ”أيها السيّد الرّب يسوع المسيح (إلننا) ...“، يقول الكاهن مخاطباً الابن: ”بمسرة الله الآب الذي أنت معه مُباركٌ وممجّدٌ، والرّوح القدّس المحيي، المساوي لك في الجوهر. الآن وكلّ أوان وإلى ...“.

- أوشية سرّ الإنجيل، يقول الكاهن مخاطباً الابن: ”ولك تُرسل المجد، مع أبيك الذي لا بدء له، وروحك الكلّي قدسه، الصّالح والصّانع الحياة، الآن ...“.

- وعند بدء قراءة الإنجيل المقدّس، يرد الشّعب: ”المجد لك يارب. المجد لك“.

- وفي نهاية قراءته أيضاً، يرد الشّعب: ”المجد لك يارب“، والتي صارت اليوم: ”والمجد لله دائماً“.

وبخصوص قراءة فصل الإنجيل المقدّس، يقول كلٌّ من كتاب ”التّرتيب الطّقسي“ (ص ٧٤ وما بعدها)، وكتاب ”سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت“ (ص ١٥ وما بعدها)، وهما من مدوّنات القرن الخامس عشر، ما يلي^(١٦):

”عندما كان موسى يقرأ عليهم النّاموس، كانوا مُطرقين برؤوسهم، لئلا ينظروا (إلي) البهاء والثّور (الذي على وجهه موسى) اللذين كانا على وجهه، فإنه كان على وجهه برقع. فإنه كان عند قراءة النّاموس، يكشف البرقع الذي على وجهه. فكانوا يخضعون برؤوسهم حتى لا ينظروا إلى وجهه. فإن (كلّ) من كان ينظر إلى وجهه يموت، لأجل مجد نور الرّب الذي كان حالاً عليه. والنّاموس لم يكن يقرأه إلّا الكاهن أو النّبي. ولهذا فعل آباؤنا، أن الإنجيل ما كان يقرأه إلّا الكاهن. وكذلك هو الآن عند سائر الطّوائف، ما يقرأه إلّا الكاهن. فلمّا وُضع الآن أن الشّمّاس يقرأه، صار الكاهن يقف ووجهه إلى الغرب دون الشّعب كلّ، حتى أن كلّ واحد يخضع برأسه حتى لا ينظر إلى الكاهن ويخضع للإنجيل“.

* * *

وهنا تأتي العظة التي تعقب قراءة فصل الإنجيل المقدّس، وغايتها هي تبشير العالم بخلاص المسيح، والشّهادة لحق الإنجيل. ولكن قبل أن نترك الحديث عن قدّاس الكلمة، أودّ الإشارة إلى ممارسة لحقت به منذ الأربعينيّات من القرن العشرين أو بعد ذلك بقليل، ولاسيما في عيدي الميلاد والقيامة، حين صار يفدّ إلى الكنائس الكاتدرائية، مسعولون من الدّولة لتّهنئة بالعيد. فعاد قدّاس الكلمة إلى طقسه الذي عرفته الكنيسة في قروها الأولى، ولكن بفارق جوهر في الطّقس الحالي، إذ صار التّرحيب بالضيّوف وتكريمهم، في داخل الصّلوات الليتورجية نفسها!

وهنا أحتاج إلى نبذة تاريخية مختصرة لتوضيح الأمر. ينقسم القدّاس الإلهي في أصوله الأولى، إلى قسمين أساسيين، هما ”الاجتماع“ و ”الشركة“. والقسم الأوّل منه أي ”الاجتماع“ والذي عُرف باسم ”قدّاس الكلمة“ أو باسم ”قدّاس الموعوظين“ فيما بعد، أو باسم ”السّيناكس الصّغير“ †ΚΟΥΧΙ ἸΣΤΥΝΑΖ في الكنيسة القبطية، كان مُباحاً لكلّ من أراد

١٥- وهو يوحنا أسقف بُصري Bostra ومطرائية العرب، وبُصري هي عاصمة حوران جنوب غرب سوريا. وقد عاش في منتصف القرن السّادس الميلادي، وكان معاصراً للقدّيس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥-٥٣٨م). وله قدّاس حُفظت أجزاء منه في مخطوط خولاجي الدّير الأبيض بسوهاج، والذي تمّ اكتشافه في القرن العشرين، بواسطة الأب عمانوئيل لان Emmanuel Lanne (١٩٢٣-٢٠١٠م).

١٦- الكلمات المكتوبة بالبنط الثقيل، هي ما ينفرد به كتاب ”سرّ الثالوث في خدمة الكهنوت“. والكلمات المكتوبة بين قوسين () هي ما ينفرد به كتاب ”التّرتيب الطّقسي“.

أن يحضر من كلِّ الفئات والانتماءات، ومن بينهم أيضاً الموعوظين الذين يستعدون لقبول المعمودية. وهذا القسم، يتكوّن من فاتحة يقوّلها الرّئيس، ثمّ قراءات من العهد القديم، ومن كتابات الرُّسُل، والأناجيل، وترتيل المزامير، ثمّ العظة. وبعد العظة، يخرجُ الجميع ما عدا المؤمنين الذين سيتناولون من الأسرار المقدّسة، حيث يُعلن الشّمامسة: "الأبواب، الأبواب". فيقوم حارسو أبواب الكنيسة بغلقها، ويمنعون أيّ دخول أو خروج.

وهنا يأتي القسم الثّاني من القدّاس، وهو "الشّرْكَة" أي "السّيناكس الكبير" $\text{†} \text{ни́жнѣе} \text{†}$ ويجوي أربعة أفعال رئيسيّة، هي نفس الأفعال التي أكملها الرّب في ليلة العشاء الأخير، حين: أخذ خُبْزاً (وهي التّقدمة أي تقديم الحَمَل - Offertory)، وبارك (أي التّقدّيس - Consecration)، وكسّر (أي القسمة - Fraction)، وأعطاه للتّلاميذ (أي التناول أو الشّرْكَة - Communion). أي أنّ هذا القسم الثّاني من القدّاس الإلهي، يبدأ بتقديم الحَمَل الإلهي.

ولكن بعد اندثار طغمة الموعوظين من الكنيسة، انتقل تقديم الحَمَل الإلهي، ليكون سابقاً على "الاجتماع"، أي سابقاً على قدّاس الكلمة. فصار قدّاس الكلمة في داخل الصّلوات الليتورجية وقلبها، لأنّ الحَمَل الإلهي قد قُدّم بالفعل على المذبح. وإنّ تغطية القرايين بالإبروسفارين أثناء قدّاس الكلمة، لا يعني أننا لسنا في داخل القدّاس الإلهي. ولكن وضع الإبروسفارين على القرايين، هو بسبب أنّ الكاهن لا يكون واقفاً أمامها بصفة دائمة، إذ عليه تتميم دورات البُخور، وقراءة فصل الإنجيل المقدّس، والعظة. وخير شاهد على أننا في داخل القدّاس الإلهي نفسه في هذا الوقت، هو قول الشّماس لحظة رفع الإبروسفارين عن القرايين، وبعد العظة مباشرة: "ارفعوا أعينكم إلى ناحية المشرق، لتنظروا المذبح، وجسد ودمّ عمانوئيل إلهنا، موضوعين عليه...".

ومن ثمّ، فقد صارت العظة التي تعقب قراءة فصل الإنجيل المقدّس، في الطّقس الحالي، في قلب القدّاس الإلهي، لأنّ الذّبيحة كائنة على المذبح. فهل يليق أن نشغل غيرها؟ إنّ القدّاس الإلهي منذ وضع القرايين على المذبح المقدّس، وحتى التّسريح الأخير، هو مثول حقيقيّ في حضرة الرّب. والرّبُّ يغارُ على بيته جدّاً، وكرامته ومجده لا يعطيها لآخر، كقول الرّب نفسه عن نفسه، بفم إشعياء النبي^(١٧). والاختيار لنا.

إنّ تكريمنا للقائمين على حُكم البلاد، تعرفه الكنيسة جيّداً منذ نشأتها، بصلاة من أجلهم إلى الله، وهو ما يُعرف فيها بأوشية الملك أو الرّئيس، حيث تُصلّي الكنيسة من أجله، مع كلِّ الوزراء والرؤساء والجنود، لكي يحفظهم الرّب بسلام وعدل، ولكي يتكلّم في قلبهم من أجل سلام الكنيسة، لكي نعيش في سيرة هادئة. وهو تتميم لقول الإنجيل المقدّس: «لتخضع كل نفس للسّلّاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلاّ من الله، والسّلّاطين الكائنة هي مرتّبة من الله» (رومية ١٣: ١).

ولدينا في الكنيسة أقدم نصّ ليتورجي يختص بالصّلاة من أجل الملك أو الرّئيس، يعود إلى أواخر القرن الأوّل الميلادي، محفوظ في رسالة كليمنس الروماني إلى أهل كورنثوس. يقول:

"أيها السيّد الرّب، أنت الذي منحتهم قوّة التّمكّن بسُلطانك الفائق غير الموصوف. وها نحن بسبب الكرامة والمجد اللذين منحتهما لهم من لدنك، نخضعُ لهم، غير مقاومين إرادتك في شيء، مهما كان صغيراً. امنحهم أنت ياربُّ، العافية والسّلام والاتفاق والحزم، حتى يستطيعوا أن يتمّموا قيادتهم العُليا بلا عائق، بحسب ما تعطيهم. لأنك أنت أيها الرّب الملك السّمائي لكلِّ الدّهور، الذي تمنح بني الإنسان، المجد والكرامة والسّلطان، للسيادة على كلِّ ما هو فوق الأرض.

فدبر أنت مشورتهم بحسب صلاحك، وكسرتك، كما يليق أمامك، حتى يستخدموا سُلطانهم الذي منحتهم كنعمتك، بالرّفق والتّقوى والسّلام"^(١٨).

وهكذا يتأكّد للجميع، أنّ تكريمنا واحترامنا وخضوعنا للقائمين على حُكم البلاد، هو أمرٌ مهم، لأنّ الكتاب المقدّس يوصينا بذلك، ولأنّ الكنيسة أيضاً تُعلّمنا ذلك، ولكن بدون أن تتخطّى تقليد الكنيسة. فهل يمكن أن نُعيد قدّاس الكلمة في عيدي الميلاد والقيامة في الكنائس الكاتدرائيّة إلى طقسه القديم، ليكون قبل تقديم الحَمَل؟ أو يكون ذلك الاحترام قبل بدء

الصلاة، أو في اليوم السابق أو التالى للعيد؟

* * *

• يُردّد الشعب قانون الإيمان ويقول فيه: ”وجلس عن يمين أبيه، وأيضاً يأتي في مجده“^(١٩)، ليدين الأحياء والأموات ... نعم نؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب، نسجد له ونمجده، مع الآب والابن ...“.

• في صلاة الصلح:

في جميع صلوات الصلح في القداسات القبطية، تأتي الذكصا الختامية لها، والتي تُقال سرّاً^(٢٠)، في إحدى صيغتين:
- في القداسين الباسيلي والكيرلسي: ”... بالمسيح يسوع ربنا، هذا الذي من قبله المجد والكرامة والعزة والسُّجود، تليق بك معه، ومع الروح القدس، المحيي المساوي لك ... الخ“.

- في القداسين الغريغوري والكيرلسي: ”... وأنت الذي نرسل لك إلى فوق، المجد والكرامة والعزة والسُّجود، (في الكيرلسي) أيها الآب والابن والروح القدس، الآن ... (أو في الغريغوري) مع أيك الصالح، والروح القدس المحيي المساوي لك ...“.

• وهنا يأتي مرد الشّماس: ”قبلوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدّسة ...“. وهو المرء الذي يقول فيه الشّماس في القداس الغريغوري: ”... ارفعوا أعينكم إلى ناحية المشرق، لتتظروا المذبح وجسد دم عمانوئيل موضوعين عليه. الملائكة ورؤساء الملائكة قيام، الشّاروبيم الممتلئون أعيناً، والسّيرافيم ذوو السّنة أجنحة، يشترتون وجههم من بهاء عظمة مجده غير المنظور ولا منطوق به“.

• فيقول الشعب الأسبسموس الآدام:

- في القداس المرقسي، يقول الشعب: ”عمانوئيل إلهنا، في وسطنا الآن، بمجد أبيه، والروح القدس، ليباركنا كلنا، ويظهر قلوبنا، ويشفي أمراض نفوسنا وأجسادنا. نسجد لك أيها المسيح ...“.

- الأسبسموس السنوي المعتاد الذي سقط من طقسنا الحالي: ”أيها المسيح مخلصنا، اجعلنا أهلاً لسلاّمك المقدّس في السموات“^(٢١). لكي نسيحك مع الشّاروبيم والسّرافيم صارخين قائلين: قُدُوسٌ قُدُوسٌ قُدُوسٌ أيها الربُّ الضّابط الكل، السّماء والأرضُ مملوءتان من مجدك وكرامتك ...“. ثمّ يجتم الشعب الأسبسموس بقوله: ”نسجد لك أيها المسيح، مع أيك الصّالح، والروح القدس لأنك أتيت وحلّصتنا“.

• فيأخذ الكاهن تسبحة الثلاثة تقديسات من فم الشعب، ليقول في بدء الأنافورا:

- في القداس الكيرلسي: ”مستحقٌ ومستوجبٌ أن نسيحك، ونرتّل لك، ونباركك، ونخدمك، ونسجد لك، ونشكرك، ونمجّدك، ونعترف لك“^(٢٢)، ليلاً ونهاراً بشفاه غير هادئة، وقلب لا يسكت، وتمجيدات لا تقطع ... أنت الذي يقوم أمامك حيوانك الكريمان جدّاً، ذو السّنة أجنحة، الكثير الأعين، السّرافيم والشّاروبيم، فجنّاحين يغطّون وجوههم من أجل لاهوتك الذي لا يُستطاع النّظر إليه، ولا التّفكير فيه ... لأنّ في كلّ زمان يُقدّسك كلّ أحد. لكن مع كلّ من يُقدّسك، اقبل تقديسنا منّا نحن أيضاً ياربُّ إذ نسيحك معهم قائلين“.

- في القداس الغريغوري: ”مستحقٌ بالحقيقة وعادل أن نسيحك، ونباركك، ونخدمك، ونسجد لك، ونمجّدك ... أنت الذي السّلاطين تنطقُ بمجّدك ... أنت الذي الكراسي تُرسل لك الكرامة ... يُرسلون تسبحة الغلبة والخلاص الذي لنا بصوت ممتلئ مجدّاً، يسيحون ويُنشدون ويصرخون ويصوتون قائلين“.

- في القداس الباسيلي: ”مستحقٌ وعادل ... الجالس على كرسي مجده، المسجود له من جميع القوّات المقدّسة ... أنت

١٩- وذلك بحسب النّص القبطي. وأمّا بحسب النّص السّرياني: ”وأيضاً سيأتي بمجد عظيم“. وبحسب النّص اليوناني: ”وأيضاً يأتي بمجد“.

٢٠- وبرغم أنّها تُقال سرّاً، لكن يلزم أن يكمل الكاهن هذه الذكصا الختامية، كاملة حتى نهايتها.

٢١- يقول الكاهن في القداس المرقسي: ”اجعلنا أهلاً للسّلام السّمائي اللاّئق بلاهوتك، والمملوء خلاصاً، لنعطيه لبعضنا بعضاً بحبّة كاملة، ونقبل بعضنا بعضاً بقبلة مقدّسة ... وكمثل تلاميذك القديسين الرّسل، إذ صالحنا بعضنا بعضاً، بالطهارة تنظّهر وتنقدس من قبل وساطة روح القدس“.

٢٢- أفعال التّسبيح في القداس المرقسي ثمانية أفعال. وفي القداس الغريغوري خمسة أفعال. بينما يخلو منها القداس الباسيلي.

الذي يقف حولك الشاروبيم الممتلئون أعيناً، والسيرافيم ذوو السنته أجنحة، يسبحون بالدوام بغير سكوت قائلين: “

• فيجيب الشعب قائلاً: “قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ربُّ الصِّبَاوُوتِ، السَّمَاءِ والأَرْضِ مملوءتان من مجدك الأقدس”^(٢٣).

• فيأخذ الكاهن المرد من فم الشعب، ويقول:

– في القُدَّاسِ المرقسي: “قُدُّوسٌ ربُّ الصِّبَاوُوتِ، السَّمَاءِ والأَرْضِ مملوءتان من مجدك المقدَّس أيها الربُّ إلهنا.

بالحقيقة، السَّمَاءِ والأَرْضِ مملوءتان من مجدك المقدَّس^(٢٤) من قبل ابنك الوحيد ربُّنا وإلهنا ومخلصنا وملكننا كلنا

يسوع المسيح ...”.

• وفي القُدَّاسِ الغريغوري، يقول الكاهن: “قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ السَّمَاءِ والأَرْضِ مملوءتان من مجدك المقدَّس”.

ويبدو هذا التناغم بين ما يقوله الشعب وما يقوله الكاهن، على أدق صورة، في مخطوطة دير البلايزا، إذ بعد أن يقول

الكاهن: “قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ربُّ الصِّبَاوُوتِ، السَّمَاءِ والأَرْضِ مملوءتان من مجدك”، يقول مباشرة: “املاًنا نحن أيضاً

من مجدك، وتفضّل وأرسل روحك القُدُّوس ...”.

وهو نفس ما نجد في قُدَّاسِ القديس سراييون. إذ بعد التَّسْبِحة الشَّارُوبِيْمِيَّة مباشرة، يقول الكاهن: “السَّمَاءِ والأَرْضِ

مملوءتان من مجدك المهور جداً. ياربُّ القوَّاتِ، املاً أيضاً هذه الذَّبيحة بقوَّتِكَ ومشاركتك، لأننا قدَّمنا هذه الذَّبيحة الحيَّة،

والتَّقدمة غير الدَّمويَّة”.

ويقول البابا أثناسيوس الرِّسُولي:

[... أيُّ كائن أقربُ إلى الله من الشَّارُوبِيْمِ والسيرافيم؟ ومع ذلك فإنهم لا يشخصون إليه، ولا يمسون الأرض

بأرجلهم أمامه، ولا يكشفون وجوههم، بل يغطونها، ويقدمون التَّسايحَ بشفاه لا تفتُر، ولا يفعلون شيئاً آخر

غير تمجيد الطَّبيعة الإلهيَّة الفائقة، بتسبحة التَّلاثة تقديسات]^(٢٥).

ويعقب الأنبا ساويرس ابن المقفِّع (حوالي ٩١٥-١٠٠٠م)، على هذه التَّسْبِحة الشَّارُوبِيْمِيَّة، فيقول: “... وبعد الإنجيل،

يُقَدِّسُ (الكاهن) الله مع الملائكة، لأن الكاهن يقول: “أنت الذي تقف قدامك الملائكة، الكاروبيم الكثيرو الأعين،

والسَّارُوبِيْمِ ذوو السنته الأجنحة، يسبحونك على الدوام بغير سكوت قائلين. يجاوبه كلُّ من في الكنيسة بصوت واحد

قائلين: “قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ربُّ القوَّاتِ، السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ممتلئتان من مجدك الأقدس”. هذا التَّقديس، يقوله جميع الذين

يحضرون الكنيسة، يُقدِّسون الله التَّالوثَ بهذه التَّالوثِ تقديسات. وهو أيضاً يُقدِّسهم من خطاياهم كما قال على لسان إشعياء

النَّبِيِّ: «إنَّ الذي يمجدني أنا أجدده، والذي يُقدِّسني أنا أقدِّسه». فبهذا التَّقديس يتقدِّس المؤمن من خطاياهم. وقولنا يتقدِّس،

٢٣- انظر: إشعياء ٦: ٣ والجدير بالذكر هنا أنَّ الأبيسموسات الواطس في القُدَّاسِ الإلهي مشحونة بتمجيد التَّالوثِ وتقديسه. كما كانت

الأبيسموسات الآدام أيضاً في الطَّقْسِ القديم.

هذا المرد يُقال مباشرة من فم الشعب. أمَّا الأبيسموس الذي يسبق التَّسْبِحة الشَّارُوبِيْمِيَّة، وهو: “الشَّارُوبِيْمِ يسجدون لك، والسيرافيم

يمجدونك، صارخين قائلين”، فهو مقدِّمة لم ترد مرتبطة بهذه التَّسْبِحة في أيِّ حولاجي قبطي عربي بدءاً من مخطوط الفاتيكان رقم (١٧ قبطي)،

ومخطوط أكسفورد رقم (٣٦٠ هنت)، وحتى في الحولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م، والذي راجعه القمُّص عبد المسيح صليب المسعودي على

مخطوطات حولاجيات قديمة. ولم ترد كذلك في التَّالوثِ قُدَّاسات القبطيَّة الباسيلي والغريغوري والكيرلسي، لا في نصوصها القبطيَّة، ولا في

نصوصها اليونانيَّة.

W.F. Macomber, *The Greek Text of the Coptic Mass*, in OCP 43, (1977), p. 323.

أمَّا ابن كَبْر في القرن الرَّابِع عشر، فنجد عنده أصلُ هذه المقدِّمة، وسبب ارتباطها بالتَّسْبِحة الأصليَّة كَأبيسموس واطس مختصر يسبقها

مباشرة، يُقال في الأعياد والمناسبات. فيقول: “وإذا قال الشَّمَّاسُ: الجُلوس فليقفوا. وإلى الشَّرْق فينظروا، يتبع ذلك بقوله: أُجيبوا

просχωμεν (بروسخومين) فيقول الشعب: قُدُّوسٌ ἅγιος (ثلاث مرَّات). وفي أيام الأعياد وأوقات الفسحة والاحتفالات، يقولون:

Πιχεροϋβνι σεοϋωϋτ ιμιοκ (أي: الشَّارُوبِيْمِ يسجدون لك ... الخ)“.

وأظنُّ أنَّ ما يذكره ابن كَبْر، يعني بالضرورة أنَّ هذه المقدِّمة “الشَّارُوبِيْمِ يسجدون لك والسيرافيم يسبحونك صارخين قائلين”، لم تكن تُقال

كما نقولها اليوم بهذه السَّريعة، بل كانت ذات لحن مميِّز، يستوجب أدائه فترة من الوقت.

٢٤- في قُدَّاسِ سراييون: “السَّمَاءِ والأَرْضِ مملوءتان من مجدك المهور جداً ...”.

٢٥- مقالة في تفسير لوقا ١٠: ٢٢-٢٣- فقرة ٦ NPNF. 90 PG 25, 217

تأويلها يتطهر من خطاياها. لأنَّ التَّقديس لفظة بالسريانية والعبرانية، تأويلها التَّطهير. فالتَّقديس هو التَّطهير، والقُدُّوس هو الطَّاهر. فافهم هذا التَّأويل أيضاً، ليتحقَّق أنَّ التَّقديس يُقدِّس المؤمن من خطاياها“^(٢٧).

انظر، ما أربح هذه اللحظات التي تتوحَّد فيها الكنيسة، إكليروساً وشعباً، لتمجيد الثالوث القُدُّوس، بتسبيحة الثلاثة تقديسات. ومن أجل ذلك، ليس من السَّهل الدُّخول في هذه الحضرة الإلهية، وبهذا التَّقديس المثلث، إلاَّ إذا كان الذَّهن قد انحسر في الصَّلَاة منذ بدايتها، وفي الإصغاء إلى كلمة الله في فصول القراءات، وفي العظة أيضاً التي لا تخرج عن هذا السِّياق.

* * *

• وعند الرُّشومات على الجسد المقدَّس والدَّم الكريم، يقول الشَّعب: ”نؤمن ونعترف ونمجِّد“.

• في طقس الاستدعاء $\eta \epsilon \pi \iota \kappa \lambda \eta \sigma \iota \varsigma$ ^(٢٧):

– يقول الكاهن في القُدَّاس المرقسي: ”أنت الذي وضعنا أمام مجدك القُدُّوس قرايينك، ممَّا لك يا أبانا القُدُّوس ... وأرسل إلى أسفل من علوك المقدَّس ... البارقليط روحك القُدُّوس ... علينا نحن عبيدك وعلى هذه القرايين التي لك المكرمة السَّابق وضعها أمامك، على هذا الحُبز وعلى هذه الكأس، لكي يتطهَّرا وينتقلا“^(٢٨) ... لكي يكونا لنا جميعاً نحن الآخذين منهما، إيماناً بغير فحص، ومحبَّة بغير رياء، وصبراً كاملاً، ورجاءً ثابتاً ... وتجديداً للنفْس والجسد والروح، ومجداً لاسمك القُدُّوس، ومشاركة وسعادة الحياة الأبدية وعدم الفساد، وغفراناً للخطايا“.

– ويقول في القُدَّاس الباسيلي: ”ليحل روحك القُدُّوس علينا، وعلى هذه القرايين الموضوعه، ويظهرها“^(٢٩)، (وينقلها)^(٣٠)، ويُظهرها قدساً للقديسين“.

– ويقول في القُدَّاس الغريغوري سرِّاً وهو منحن: ”أنت يا سيِّدنا، بصوتك وحدك، حوَّل هذين الموضوعين، أنت الحال معنا، هيين (أو: أكمل) لنا هذه الخدمة المملوءة سرِّاً. أنت أغرس فينا (أو: استرجع لنا بنفسك) ذكر خدمتك المقدَّسة، وأرسل علينا نعمة روحك القُدُّوس، لكي (إذ يحل بحضوره المقدَّس والصَّالح والممجِّد)، يُطهَّر^(٣١) وينقل^(٣٢) هذه القرايين الموضوعه إلى جسد ودم خلاصنا“.

* * *

• بالاستدعاء الأخير، تكون قد انتهت كلُّ أفعال وأقوال التَّقديس، لكي تبدأ مرحلة جديدة من القُدَّاس الإلهي، وهي القسمة. وختاماً لكلِّ ما سبق من صلوات وأفعال تقديس وقبل أن تبدأ القسمة، يقدم الشَّعب المجد لله، فيقول:

٢٦- الأنبا ساويرس ابن المقفَّع، الدر الثمين في إيضاح الدِّين، إصدار مدارس التربية الكنسية بكنيسة رئيس الملائكة ميخائيل بطوسون - شبرا، ١٩٨٧ م ص ١٢٤
٢٧- الاستدعاء، أي استدعاء الأقانيم الثلاثة، أو واحد منها، ليحل على القرايين، ويُقدِّسها، ويجعل منها جسد الرَّبِّ ودمه الكريمين. وكذلك أيضاً على المؤمنين الحاضرين، ليؤهلهم لقبول الأسرار المقدَّسة المهيبة.

٢٨- في النَّص اليوناني للقُدَّاس المرقسي بحسب مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex نقرأ:

$\epsilon \pi \iota \tau \omicron \nu \alpha \rho \tau \omicron \nu \tau \omicron \upsilon \tau \omicron \nu \kappa \alpha \iota \epsilon \pi \iota \tau \omicron \nu \rho \omicron \tau \eta \rho \iota \omicron \nu \tau \omicron \upsilon \tau \omicron \nu$, $\iota \nu \alpha \alpha \upsilon \tau \alpha \epsilon \upsilon \lambda \omicron \gamma \eta \sigma \eta \kappa \alpha \iota \acute{\alpha} \gamma \iota \alpha \sigma \eta \kappa \alpha \iota \tau \epsilon \lambda \epsilon \iota \omega \sigma \eta$ $\omega \varsigma$ $\rho \alpha \nu \tau \omicron \delta \upsilon \nu \alpha \mu \omicron \varsigma$ $\Theta \epsilon \acute{\omicron \varsigma}$.

أي: ”على هذا الحُبز، وعلى هذه الكأس، لكي كإله كلِّي القدرة، يتبارك، ويتقدَّس، ويتكَّملاً“.

Cf. Macomber, W.F., *The Anaphora of Saint Mark according to the Kacmarcik codex*, in OCP 45 (1979), p. 96.

ولاحظ هنا دقَّة التعبير في قوله: ”ويتكَّملاً“، كما في النَّص اليوناني، وليس ”وينتقلا“، كما في النَّص القبطي. ذلك لأنه قد سبق أن قيلت صلاة استدعاء أولى في طقس تقديم الحَمَل، قال فيها الكاهن على القرايين: ”باركهما، قدَّسهما، طهَّرها، وانقلهما“. فهنا لا يكون نقل للقرايين، بل تكميل لها.

٢٩- يطهَّرها أي يقدِّسها.

٣٠- هذا الفعل الذي يرد في النَّص القبطي للقُدَّاس، لا يعرفه النَّص اليوناني له. والذي يقول: ”على هذه القرايين الموضوعه، ويقدِّسها ويُظهرها $\alpha \nu \alpha \delta \epsilon \iota \xi \alpha \iota$ قدسات للقديسين“.

٣١- أي: يقدِّس.

٣٢- يأتي هذا الفعل في اليونانية $\mu \epsilon \tau \alpha \rho \iota \theta \eta \sigma \eta$ من الفعل $\mu \epsilon \tau \alpha \rho \iota \theta \epsilon \omega$ ويعني: remodel (مجَّد، يُعيد)، أو alter (حوَّل)، أو to make a pretence of (يُظهر)، أو lay claim to (ادَّعى أن).

Cf. Liddell and Scott, *Greek-English Lexicon*, Oxford, 1986, p. 504.

- ”المجد لك ياربُ. ياربُ ارحم. ياربُ ارحم. ياربُ باركنا. ياربُ نِيحهم. آمين“،^(٣٣).

فهذا المرد، هو مردٌ يختص بتمجيد الآب والابن والروح القدس في نهاية الأنافورا. ولكن الإضافة التي أضيفت لتكون سابقة عليه، بدون حذق ليتورجي، وهي: ”بركتهم المقدسة تكون معنا آمين“، هي التي أبعدهت عن هذا المفهوم الأصيل له. - فيلتقط الكاهن تمجيد الله من مرد الشعب، ليقول في القداسين الباسيلي والكيرلسي: ”لكي وبهذا كما أيضاً في كل شيء، يتمجد ويتبارك ويرتفع اسمك العظيم، القدوس في كل شيء، الكرم والمبارك، مع يسوع المسيح، ابنك الحبيب والروح القدس“.

وإنه في جميع الليتورجيات شرقاً وغرباً، تُحتم الصلاة الإفخارستية - وقبل أن تبدأ صلوات القسمة - بتمجيد الآب بابنه أو مع ابنه، وروحه القدوس. وهذا ما نجده في الليتورجية القبطية في النص السابق ذكره مباشرة. وفي كل الليتورجيات أيضاً، وبعد تمجيد الآب والابن والروح القدس، يعطي الكاهن السلام للشعب - بدون أن يرشم الشعب، بل يخضع مطامناً رأسه للذبيحة، بينما ينتحي جانباً قليلاً إلى الجهة البحرية من المذبح، لتتكشف الأسرار أمام المصلين - أما الليتورجية الرومانية فترجى هذه التحية إلى حين^(٣٤).

* * *

• في صلوات القسمة:

هذه المرحلة المهيبة من القداس الإلهي، وهي ”القسمة“، لها طقسها الذي يميزها. فقبل أن تبدأ القسمة، يقول الشماس مرداً يحتفظ به القداس القبطي في نصه اليوناني، وهو: ”انزلوا أيها الشماس“، فينزل جميع الشماس من الهيكل، ويقف الكاهن المقدس، ومعه الشماس المقدس، ليساعده في القسمة. وتُسدل ستارة المذبح عليهما وحدهما. فيقول الكاهن: ”السلام للجميع“، وهذا يعني أنه يبدأ بعدها صلاة جديدة. فقبلها قد اكتملت الصلاة الإفخارستية، وهنا تبدأ صلاة جديدة، هي مقدمة صلاة القسمة. فيعد أن يجيبه الشعب ”ولروحك أيضاً“، يقول الكاهن: ”وأيضاً فلنشكر الله الآب ضابط الكُل ...“.

ولاحظ هنا أيضاً أن هذا القسم الجديد من القداس، يبدأ بالشكر لله.

وصلاة القسمة بحسب تقليد كنيسة الإسكندرية، موجهة إلى الآب. وهي توجه أيضاً إلى الابن كما في القداس الغريغوري. وفي صلاة القسمة، ترد أفعال التمجيد لله بكثرة.

- ”أيها السيد الربُّ إلهنا العظيم الأبدي، والمتعجبُ منه بالمجد“.

- ”أيها السيد الربُّ إلهنا الخالق ... الذي أرسل نوره الحقيقي ابنه الوحيد يسوع المسيح الكلمة الذاتي، إذ الملائكة تسبحه وعساكر السموات ترتل له صارخين قائلين: قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ رب الصباووت، السماء والأرض مملوءتان من مجدك المقدس“.

- ”يا يسوع المسيح ذا الاسم المخلص ... أتيت يا سيدنا وأنقذتنا بمعرفة صليبك الحقيقية، وأنعمت لنا بشجرة الحياة التي هي حسدك الإلهي ودمك الحقيقي. من أجل هذا، نُسبحك ونباركك ونخدمك ونسجد لك ونمجدك ونشكرك كل حين ...“.

- ”أنت هو كلمة الآب، الإله الذي قبل الدهور، رئيس الكهنة الأعظم ... نُسبحك ونباركك ونمجدك ونشكرك“

٣٣- هذا المرد الذي يُقال بعد الترحيم، فهو محفوظ حتى اليوم في الكنيسة القبطية بنصه اليوناني، ويُقال في القداسين الباسيلي والغريغوري. ولقد أدخل كتاب ”القداسات الثلاثة متقابلة مع الضبط والشرح“ للقس كيرلس كيرلس هذا المرد، ليقال أيضاً في القداس الكيرلسي، بعد إعادة ترتيب بعض أجزائه، لينماشى مع ترتيب القداس الباسيلي.

فصار القداس الكيرلسي بذلك، مرتباً ترتيباً رابعاً: الترتيب الأول، الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م. الترتيب الثاني: ترتيب البابا مكاروريوس الثالث (١٩٤٢-١٩٤٥م) البطريك الـ ١١٤ من بطاركة الكنيسة القبطية. الترتيب الثالث: ترتيب المنتيخ الأنبا ديسقوروس أسقف المنوفية السابق سنة ١٩٦٨م. الترتيب الرابع: ترتيب القس كيرلس كيرلس سنة ١٩٧٩م!

٣٤- إغناطيوس أفرام الثاني، البطريك السرياني الأنطاكي، الباحث الجلية في الليتورجيات الشرقية والغربية، دير الشرفة، ١٩٣٤م، ص ٣٠٦

لأجل هذه النعم العظيمة“.

- ”نسيح ونمجد إله الآلهة ورب الأرباب الذي تجسد من القديسة مريم، وولده في بيت لحم“.
- ”أيها الرب ربنا، مثل عجب صار اسمك على الأرض كلها، لأنه قد ارتفع عظم بهائك فوق السموات ... فهنيئاً أيضاً يارب نفوسنا، لنسبحك ونرتل لك ونباركك ونخدمك ونسجد لك ونمجدك ونشكرك ...“.
- ”مقدسة ومملوءة مجداً هذه الذبيحة التي ذبحت عن حياة العالم كله“.
- ”يا الله الذي سبق فوسمنا للبنوة بيسوع المسيح ربنا، كمسرة إرادتك، كرامةً لجد نعمتك، التي أنعمت بها لنا بحبيبتك ... إذ نطرح عننا كل ظلمة الشر والخبث الذي لشبهه الدنس، ونستطيع أن نرفع أعيننا إلى فوق، نحو بهاء مجدك القدوس“.

* * *

- يقول الكاهن صلاة خضوع للآب سرّاً^(٣٥) قائلاً: ”كملت نعم إحسان ابنك الوحيد، ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح. اعترفنا بآلامه المخلصة. بشرنا بموته، آمناً بقيامته. وكمل السر. نشكرك أيها الرب الإله ضابط الكل، لأن رحمتك عظيمة علينا، إذ أعددت لنا ما تشتهي الملائكة أن تطلع عليه. نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر، لكي إذ طهرتنا كلنا، تولفنا بك من جهة تناولنا من أسرارك الإلهية. لكي نكون مملوئين من روحك القدوس، وثابتين في إيمانك المستقيم، وممتلين من شوق محبتك الحقيقية، وننطق بمجدك كل حين، بالمسيح يسوع ربنا، هذا الذي ...“.

في نهاية القداس

تنتهي خدمة القداس الإلهي، بنفس عبارات التمجيد والبركة والسجود التي بدأت بها خدمة القداس الإلهي.

فيقول الكاهن:

- ”مبارك الرب يسوع المسيح ابن الله، وقدوس الروح القدس آمين“.

فيجيب الشعب:

- ”واحد هو الآب القدوس، واحد هو الابن القدوس، واحد هو الروح القدس. آمين“.
- وبعد الاعتراف الأخير يقول الكاهن: ”إن كل مجد وكل كرامة وكل سجود كل حين، يليق بالثالوث القدوس، الآب والابن والروح القدس، الآن ...“.

فيجيب الشعب:

- ”المجد لك يارب. المجد لك“.

- وحين يدور الكاهن بالصينية ناحية الشعب، يهتفون قائلين: ”المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام ...“.
- في صلاة شكر بعد تناول في القداس الغريغوري: ”نشكرك أيها السيد المسيح إلهنا، الكلمة الحقيقي ... نشكرك يا الله محب جبلته، وترسل لك إلى فوق، المجد والكرامة والسجود، مع أبيك الصالح والروح القدس المحيي، المساوي لك ...“.
- صلاة شكر أخرى بعد تناول في القداس الغريغوري: ”أيها الصالح محب البشر، احفظ موهبة نعمتك فينا، لا للدينونة، ولا للوقوع في الدينونة، بل لتمتع المجد، وقيام النفس، وطهارة الجسد، لكي إذ نحيا بك ونقتات بك، نكمل البر في كل حين“.

* * *

وهكذا ومنذ بداية الصلاة وحتى نهايتها، لا نكف عن تمجيد الآب والابن والروح القدس، بتمجيدات لا تهدأ. إن مجد الله وإن كان يخصه في ذاته، إلا أن فيض مجده ينسكب على الإنسان أيضاً «وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً، كما أننا نحن واحد» (يوحنا ١٧: ٢٢). فقد تجلّى مجد الله في الخليقة، «السموات تحدت بمجد الله والفلك يخبر بعمل

٣٥- هذه الصلاة وردت في النص اليوناني للقداس الباسيلي بحسب مخطوط كسمارسك، تحت عنوان: ”صلاة أخرى للمصريين من قداس مرقس الرسول للقدسات سابقة التقديس بعد تناول من الأسرار المقدسة“.

يديه» (مزمو ١٨ : ٢)، وعلى رأسها الإنسان الذي خلقه الله على صورته ومثاله، لكي يباركه، كما نُصلي في التسبحة^(٣٦). ويتجلى مجدُّ الله بصورة فائقة في الخلاص الذي أكمله للإنسان بصليبه وقيامته، «أيها الآب، قد أتت الساعة، مجدُّ ابنك ليمجدك ابنك أيضاً» (يوحنا ١٧ : ١). وهو ما يتضح جلياً في قول رسالة العبرانيين: «الذي وُضع قليلاً عن الملائكة يسوع، نراه مكللاً بالمجد والكرامة من أجل ألم الموت، لكي يدوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد» (عبرانيين ٩: ٢).

فلتينا نُقدِّم لله في بيته الكرامة اللائقة به، أي بالآب والابن والروح القدس. وإنَّ عدم إدراكنا لأهمية تكريمنا وتمجيدنا لله في بيته، هو احتقارٌ له؟ «الآن يقول الرب: حاشا لي، فإني أكرم الذين يُكرموني، والذين يحتقرونني يصعرون» (١ صموئيل ٣٠: ٢). ويقول الرب بفم ملاخي النبي: «الابن يُكرم أباه، والعبد يُكرم سيده. فإن كنتُ أنا أباً فأين كرامتي؟ وإن كنتُ سيدياً، فأين هييتي؟ قال لكم ربُّ الجنود. أيها الكهنة المحتقرون اسمي ... ترضوا وجه الله فيتراءف علينا ... لأن اسمي عظيم بين الأمم، وفي كل مكان يُقرب لاسمي بخورٍ وتقدمة طاهرة. لأن اسمي عظيم بين الأمم قال ربُّ الجنود ... لأنني أنا ملكٌ عظيم قال ربُّ الجنود، واسمي مهيبٌ بين الأمم» (ملاخي ١: ٦-١٤).

«قال الرب: لأنَّ هذا الشعب قد اقترب إليَّ بفمه، وأكرمني بشفتيه، وأما قلبه فبعيد عني، فباطلاً يعبدوني، وهم يُعلمون تعاليم ووصايا النَّاس، لذلك أنا مزمغٌ أن أفرِّق هذا الشعب، سأزعمهم، وأبدي حكمة الحكيم، وأخفي فهم الفهم» (إشعيا ٢٩: ١٣، ١٤ سبعينية).

ويقول الرب أيضاً بفم إشعيا النبي: «كرامتي لا أعطيها لآخر» (إشعيا ٤٨: ١١). وإذ شهد يسوع أنه «ليس لني كرامة في وطنه» (يوحنا ٤: ٤٤)، قال مثل الكرم والكرامين (متى ٢١: ٣٣-الحج)، وفي هذا المثل، يقول الآب صاحب الكنيسة، وصاحب البيت وحده: «أرسل إليهم ابني لعلهم يهابونه ... فقتلوه!!!».

إنَّ مجد الكنيسة جسد المسيح، يتحقَّق بأمرين؛

الأمر الأول، حين نمجد المسيح وحده في بيته، لأنه هو رأس الكنيسة، فيسبغ المسيح على الكنيسة مجدداً من مجده. «أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يوحنا ١٧: ٢٢)، وذلك حين يُخفي الكاهن نفسه خلف صليب المسيح، ليظهر المسيح وحده، أنه هو الذي يعمل به وفيه، لمجده هو (أي لمجد المسيح). تماماً كما أكمل المسيح رسالته التي أرسله الآب من أجلها، حتى إلى موت الصليب، حين قال مخاطباً الآب: «أنا مجدُّك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يوحنا ١٧: ٤)، ف «أخذ من الله الآب كرامة ومجداً» (٢ بطرس ١: ١٧).

هل يوجد في الكنيسة خادمٌ خدَّم فيها وتعب أكثر من بولس الرسول الذي تعب أكثر من جميع الرُّسل؟ بولس الرسول هذا، الذي أخذ إلى السماء، ورأى أموراً لا يسوغ الحديث عنها، الذي ظهر له الرب شخصياً ودعاه لخدمته، سمعه يقول مخاطباً مخدوميه: «نحن جهال من أجل المسيح، وأما أنتم فحكماة في المسيح. نحن ضُعفاء، وأما أنتم فأقوياء. أنتم مكرمون، وأما نحن فبلا كرامة» (١ كورنثوس ٤: ١٠). فأين نحن من هذه الخدمة؟ «مخافة الرب أدبٌ وحكمة. وقبل الكرامة التواضع» (أمثال ١٥: ٣٣). «ثواب التواضع ومخافة الرب، هو غنى وكرامة وحياة» (أمثال ٢٢: ٤).

والأمر الثاني، يتحقَّق مجدُّ الكنيسة، حين تكتمل وحده الكنيسة المحليَّة برعاية الأسقف المحلي، ثم وحدة الكنيسة الجامعة. واسمعوا وصية الشهيد إغناطيوس الأنطاكي (٣٥-١٠٧م):

[باتفاق الشعوب، وتناغم الحبة، تُنشدون يسوع المسيح ... تُنشدون بصوت واحد، في يسوع المسيح، نشيداً للآب الذي يُصغي إليكم، ويميزكم من أعمالكم الصالحة، كأعضاء جسد ابنه. لذلك من النَّافع لكم أن تصيروا في وحدة بلا لوم، فتكون لكم شركة في الله على الدوام] (أفسس ٤).

٣٦- يقول البابا أناسيوس الرسولي: [الابن وحده هو الصورة الحقيقية والطبيعية للآب. ورغم أننا قد خُلقنا حسب (هذه) الصورة ودُعينا صورة الله ومجده، فذلك ليس من ذاتنا، بل بسبب صورة الله ومجده الحقيقي الساكن فينا، الذي هو كلمته، والذي صار جسداً لأجلنا فيما بعد، لكي ننال نحن نعمة هذه التسمية] (ضد الأريوسيين ٣: ١٠).

إنَّ وحدة الكنيسة الروحية، تكون حين يأخذ الروح القدس دوره الحقيقي في الكنيسة، فيتمجد المسيح. لأنَّ الروح القدس يأخذ من المسيح ويعطي الكنيسة. وفي ذلك يقول القديس كيرلس الكبير: [كما أنَّ قوَّة الجسد المقدَّس تجعل الذين يحلُّ فيهم جسداً واحداً بالتَّمام، كذلك بنفس الطَّريقة فإنَّ روح الله حينما يحلُّ في الجميع، وهو واحدٌ وغير قابل للانقسام، فهو يجمع الجميع إلى الوحدة الروحية] (شرح إنجيل يوحنا ١٧: ٢١).

وإنَّ وحدة الكنيسة الجامعة، هي طلبة المسيح ووصيته الأخيرة، بصلاته إلى الآب: «ليكون الجميع واحداً ... ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يوحنا ١٧: ٢١). فإنَّ اتحدت الكنيسة، يؤمن العالم بالمسيح. فهل يأتي يومٌ يُنبر فيه إنجيلُ مجد المسيح الذي هو صورة الله، على كلِّ البشر^(٣٧)، تحقيقاً لقول الربِّ: «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليفة كلِّها؟» (مرقس ١٦: ١٥).

وفي النهاية، يُعلِّمنا الكتاب المقدَّس، ومن الأصحاح الأوَّل من رسالة أفسس، أنَّ كلُّ شيءٍ أخضعه الآب للمسيح، هو من أجل الكنيسة. وأنَّ الآب حين جعل المسيح رأساً فوق كلِّ شيءٍ، فذلك أيضاً من أجل الكنيسة. أي أنَّ مجد الكنيسة يكتمل، حين يكتمل فيها مجد المسيح. هنا تكتمل رسالة الكنيسة، كما اكتملت رسالة المسيح. فهذا هو اليوم الذي تُعلن فيه الكنيسة للمسيح عن كمال رسالتها، كما أعلن المسيح للآب عن كمال إرسلته، فيكتمل مجد المسيح والكنيسة.

”أنت الذي وضعنا حياتنا عندك ياربُّ ... والخشوع الذي صار لنا بالصلاة، وطيب القلب في العُمر المستقيم، احفظهما لنا بلا سارق ولا ندم. لكي في كلِّ زمان وكلِّ مكان لربوبيتك، ننظرُ إليك، ونسلكُ فيما يُرضيك وما تهواه، لكي لا نخزي في يوم الحُكم الحقيقي ...“ (من القدَّاس الكيرلسي).

* * *